استراتيجية الخطاب الصاعد في القرآن الكريم

أ.م.د.انجيرس طعمة يوسف

جامعة البصرة-كلية الآداب
قسم اللغة العربية

الملخص:

البحث يتناول موضوعة من موضوعات التداولية في الخطاب القرآني . والخطاب المراد هنا ليس هو الخطاب النازل من الله الى الانسان على وفق الاستراتيجية التوجيهية بل المقصود في هذا البحث هو الخطاب الصاعد من الانسان الى الله على وفق الاستراتيجية التضامنية ، ومبدأ التأدب ، وصولا لتحقيق مضمون الخطاب وتحقيق التواصل بين طرفي الخطاب : الانسان من جهة- بقطع النظر عن معتقده وفكره - والله تعالى من الجهة الاخرى . وتشكيل دائرة تواصل بين طرفي الخطاب . على وفق الأساليب اللغوية من : الأمر والنهي والنداء التي تخرج للدعاء على وفق سياقات معينة . وأثر الإشاريات في تحقيق التضامن . فضلاً عن الامكانات غير اللغوية التي تتعلق بالسياقات الخارجية مما يتعلق بالجانب النفسي للمرسل من التضرع والخشوع .أو الخوف من المصير والرغبة والطمع بالفوز، وفي ازمان خطاب مفتوحة . بعد إن رسمتها الآيات القرآنية التي تتعلق بمنظومة الدعاء في الخطاب القرآني التي تشكل حيّزاً متميزاً في الخطاب القرآني العام . معتمداً خطاب الانبياء شاهداً وتطبيقاً للخطاب الأمثل بوصفهم يمثلون النخبة التي تعتمد كل الاستراتيجات للتواصل مع المخاطب بعد معرفتهم وقربهم .

الكلمات المفتاحية : الخطاب، الاستراتيجية، التوجيهية ، التضامنية، دائرة التخاطب.

The Strategy of the Ascendant Discourse in the Holy Qur'an

Injaris Toamah yousif
University of Basra\ Faculty of Arts \ Department of Arabic

This study addresses a pragmatic aspect in the Holy Qur'an. It is not concerned with the discourse descending from Allah to Man according to the directive strategy, but with the discourse ascending from Man to Allah in accordance with the solidarity strategy and politeness techniques in an attempt to realize the content of the discourse and establish communication between the two parties: for the one hand, Man regardless of his ideas and beliefs and Allah on the other hand. Moreover, a sort of communication is established between the two parties according to certain linguistic modes such as imperative, prohibition, and vocative which are interpreted as ways of supplication based on given contexts as well as highlighting the impact of deixis on establishing solidarity. Furthermore, the study sheds light on the non-linguistic potentials related to the external contexts inherited in the spiritual situation of the addresser like invocation and submissiveness, or the fear from the destination and the desire to the attainment during open discourse periods as portrayed by the verses of Qur'an associating with the system of supplication in the Qur'anic discourse. This system constitutes a distinct space in the general Qur'anic discourse. The discourse of Prophets, as an ideal illustration, is employed in this study due to the fact that they represent the elite who adopt all the strategies in order to communicate with the addressee.

Key words: discourse, strategy, directive ,solidarity, discourse domain.

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل القرآن الكريم بالحقِّ خطاباً للعالمين ، و نوراً يُستضاء به الى يوم الدين . والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد المصطفى الذي تلقّى الكتاب وبلّغ ما به من خطابَ ، وعلى آله الطيبين الطاهرين واصحابه المنتجبين.

تشكّل آيات الدعاء خطابَ الإنسان لربّه على وفق سياقات معينة وألفاظ وأساليب تتعلق بأحوال المرسِل وتمثّل منظومةً للتواصل. فهو خطابٌ تراتبي يصعدُ من الإنسان الى ربه صعوداً معنوياً طلباً لقبول المخاطَب (الله تعالى) وأجابته . وقد بيّنتْ بعض الآيات القرآنية هذا الخطاب على وفق استراتيجيات خاصة. فثمة خطوات ينبغي على الإنسان (المرسِل) إتخاذها لتحقيق مضمون الخطاب وجدت أنها تستحق البحث والتأمل. فصار البحث بعنوان (استراتيجية الخطاب الصاعد في القرآن الكريم) . وقد كنتُ مع الخطاب القرآني في محاولات بحثية سابقة ، ولا يزال يعيش في أعماقي .وجدتُ بين طياته ملاذاً خصباً تأنس فيه النفس بحثاً وتنقيباً .

يتضمن البحث مباحث فرعية تتعلق بالموضوع نفسه لتغطية أكبر مساحة ممكنة بحسب المحددات البحثية ، وعلى وفق المناهج العلمية معتمداً الوصف والتحليل.

سلطتُ الضوء في أول مبحث على العلاقة بين المرسِل والمخاطَب . ثم انتقلتُ الى كيفية تشكيل دائرة الخطاب بوصفها المنتج الطبيعي لهذه العلاقة . وفي مبحث آخر وقفت عند الاستراتيجيات اللغوية المتاحة في الخطاب ، ومنها الإستراتيجية التضامنية ، فالأساليب الطلبية التي تؤدي معنى الدعاء من الأمر والنهي والجملة الخبرية احتلت الجزء الاكبر من البحث بوصفها عماد هذه الاستراتيجية . وخصصتُ التأدب بعنوانٍ خاص لأهميته في بيان الإستراتيجية في الخطاب . ثم أفردتُ مبحثاً للإشاريات وأثرها في بيان هذه الاستراتيجية . ثم تحدثت عن النداء في مبحث مستقل ، وما يؤديه الحذف في النداء في هذا الخطاب . ولزمن الخطاب أهمية في التخطيط لإرسال الخطاب الصاعد فكان له مبحثٌ خاصٌ . وتناول المبحث الأخير ثنائيات قرآنية تتقابل فيها أحوال المرسِل ، لتشكل سياقات خارجية تُسهم في إيصال الخطاب . ومنها : التضرع والخفية ، والخوف والطمع ، والترغيب والترهيب . فقد ذكرت في سياق هذا الخطاب ، فآثرت الوقوف عندها إتماما للفائدة .

معتمداً في أغلب الأحيان على خطاب الأنبياء بوصفه الخطاب الأمثل - لا بقصد اتخاذه عينة البحث - بل لأنه يمثل تطبيقاً واعياً لاستراتيجية التضامن أو التلميح على وفق مبدأ التأدب وما

يتفرع عنه . وختمت البحث بخاتمة القول ونتائجه التي توصل إليها الباحث .

إن ما كتبتُه هو جُهدُ المُقلّ ، وهو خطوةٌ في مسيرة البحث العلمي للنظر في النص القرآني على وفق المناهج الحديثة . آملاً أن يلقى هذا البحث المتواضع قبولاً لدى القارئ الكريم . وهي محاولةٌ يمكن أن تتبعها محاولات . وثمة المزيد مما يمكن أن يُبحث أو يُقال .فخزائن القرآن لا تنتهي. وعلومه لا تنقضي.

أشكر الله تعالى على نعمة القراءة والتأمل والبحث في كتابه العزيز . و أساله تعالى التوفيق فيما كتبت ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ هود : ٨٨

التمهيد:

إن الخطابَ القرآني بمضمونه العام هو خطاب توجيهي ، غايته توجيه المخاطَب (الانسان) نحو الاهداف التي حددها المرسِل (الله تعالى) ورسمتها النصوص القرآنية في خطابات فرعية أخرى تتنوع بحسب موضوعاتها. فمنها ما يتعرض لعلاقة الإنسان بربه ، أو علاقته بالإنسان ، أو علاقته بالطبيعة . أو ما يتعلق بالقوانين المختلفة التي جاءت بصيغ الأمر والنهي وغير ذلك. ولكل خطاب سياقاته الخاصة التي رسمتها النصوص القرآنية المتعلقة بالخطاب ذاته ، ومن ثم فإن الخطاب القرآني يحدد الاستراتيجيات المطلوبة للخطابات الأخرى لتنظيم حياة الانسان وعلاقاته ومصيره. حتى خطاب الإنسان لربه يقوم على توجيه مُسبَق من النصوص القرآنية الخاصة بالدعاء . فهي ترسم الخطوات الكفيلة بتحقيق التواصل بين طرفي الخطاب ، وتحقيق الغرض منه بعد أن تتحول اطراف الخطاب ليكون الإنسان المخاطَب مرسِلاً للخطاب ويكون المرسِل (الله تعالى) مخاطَباً ومستقبِلاً للخطاب لتتشكل دائرة خطاب تضمن تحقيق مضمون الخطاب وتضمن التواصل.

إن الخطاب القرآني يحرص على إيجاد التواصل بين طرفي الخطاب . بل ويحفّز الأنسان على انتاج خطابٍ يضمن له التواصل مع الله تعالى ، فليس كلُ خطابٍ ينتج تواصلاً. ولكن كلَّ تواصلٍ ناتجٌ من خطاب معين مهما كان نوعه وشكله . فالتواصل بصيغة (تفاعُل) يعطي دلالة المشاركة بين طرفي الخِطاب ، فقد يتفق المفهومان بالواقع الخارجي. وقد لا يتفقان فلا يحصل التواصل مع الآخر اثناء الخطاب ، و بعده ، فيفترقان

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

.ويتبين ذلك في النصوص القرآنية التي وردت في الدعاء بوصفه منظومة تربوية وأسلوباً توجيهياً أراده الله تعالى لتحريك التواصل. وتحقيق الغرض على وفق الإستراتيجية التي رسمها الخطاب القرآني الخاص لهذا النوع من الخطاب . بعد إن توافرت فيه عناصر الخطاب ، وسياقاته .فلتحقيق غرض الخطاب لا بد من استراتيجية معينة يتخذها المرسل .

ولما كان المراد باستراتيجية الخطاب – كما ذكر الشهري – هو أن ((يكون خطاباً مخططاً له بصفة مستمرة وشعورية))[١]. فإنه يمكن القول بأن الإستراتيجية في الخطاب الديني هي: الخطوات التي رسمتها الآيات القرآنية في موضوع معين لتحقيق غرض المرسِل(الله) . ومن ثم فإن الاستراتيجية في الخطاب الصاعد هي :الألفاظ والسياقات التي رسمتها آيات الدعاء لغرض تحقيق اجابة المخاطَب (الله تعالى) . على إن المراد بمصطلح الخطاب الصاعد هو الخطاب المتوجّه والصاعد من الإنسان الى الله تعالى صعوداً معنوياً ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ فاطر / ١٠ . وهو مستعمل في كلام العرب إذ انهم يستعملون العلو للكبرياء ، والعظمة ، وشرف المرتبة لا للإرتفاع الحسي فحسب[٢]

وقسّم الشهري الاستراتيجية على أنواع هي : التوجيهية ، والتضامنية ، والتلميحية والحجاجية. ولم يذكر التأدب استراتيجيةً مستقلةً مقابل هذه الأقسام على أنه ذكره في مكان آخر مقابل استراتيجية الجفاء والمراوغة إذ قال: ((وتتدخل عناصر السياق الإجتماعية في تحديد استعمالات اللغة ، وفي انتشار بعض الاستراتيجيات على حساب انحسار البعض الاخر، مثل استعمال استراتيجية التأدب مقابل استراتيجية الجفاء ، أو استراتيجية المراوغة))[٣]. على ان ثمة من يقول أن ((التأدب هو مجموعة من الاستراتيجيات التي يتوسل بها المشاركون في الخطاب لتخفيف افعال الكلام التي يمكن ان تشكل تهديدا لماء وجههم او ماء وجه من يحادثونهم))[٤] ويبدو أنه يمكن أن يكون التأدب استراتيجية مستقلة أحيانا في بعض الخطابات إذ يعمد المرسِل ، أو المرسِلون الى اتخاذه هذه اسلوباً للوصول للغرض مع المخاطب . و يمكن أن يعمل المرسل على استراتيجية التضامن مقرونة بالتأدب احياناً وربما استعمل التلميح وذلك بحسب نوع الهدف وحجمة وهوية المخاطب ، ومدى قبوله

ورفضه . وهكذا ثمة عوامل عدة تتحكم في تحديد أنواع الاستراتيجيات أو أعدادها .

ومن المعلوم إن الخطاب القرآني هو الذي وجّه الانسان لإنتاج خطابه وارساله بسياقات معينة تتضمن عناصر الخطاب التوجيهي من الأمر والنهي.. فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾غافر / ٦٠ . فالتوجيه بهذه الآية جاء بصيغة الأمر. فضلاً عن الآيات الأخرى التي بينت هذه الاستراتيجية التوجيهية بشكل واضح . بيد إن خطاب الانسان لربه بوساطة أساليب الطلب التي خرجت للدعاء هو خطاب تضامني بشكله العام لأن المرسِل (الإنسان) يريد قبول المخاطَب له . ويسعى لتحقيق هذا الهدف عبر الإفادة من استراتيجية التأدب في بعض الخطابات احيانا.

.والاستراتيجية التضامنية هي : ((الاستراتيجية التي يحاول المرسل أن يجسد درجة علاقته بالمرسل اليه ونوعها أن يعبر عن مدى احترامه لها ورغبته في المحافظة عليها ... وهي محاولة التقرب من المرسل اليه وتقريبه))(٥) . ويعدل المرسل احياناً الى الاستراتيجية التلميحية عبر تجاوز المباشرة في الخطاب . وهو ما نجده بشكل أو بآخر في هذا النوع من الخطاب . كما سيأتي في المباحث الآتية.

وهذا يعني إننا أمام خطاب يسعى المرسِلُ فيه لإنتاج خطابَه بحسب سياقات معينة ،ومقاصد ، تشكّل استراتيجية تسعى لتحقيق أهداف بيّنتها بعض النصوص القرآنية . فهو خطاب تراتبي يقف المرسِل (الانسان) فيه في مرتبة أدنى من المخاطَب (الله) لذا قلنا إن هذا الخطاب هو خطابٌ صاعد صعوداً معنوياً الى المخاطب . وبذلك لا بد أن نعرف الألفاظ ، والجمل . والأفعال ، والأسماء ، والأصوات ، والأساليب التي وظّفها النص القرآني لبيان هذه الاستراتيجية . التي يتوسّل بها الفرد لتحقيق هدفه ومقصودة من الخطاب. ومن ثم تتم معرفة الخطوات التي ينبغي على المرسِل اعتمادها في الوصول الى الهدف من الرسالة التواصلية . ومن هذه الخطوات: هي العلاقة بين طرفي الخطاب ، وتشكيل دائرة تخاطب وتواصل بينهما . واستعمال المرسل لآليات لغوية وأساليب تحقق هذه الاستراتيجية . ومعرفة المقامات والسياقات الخارجية للمرسِل التي تسهم في تحقيق الغرض . واختيار الزمن المناسب لإصدار الخطاب .

العلاقة بين طرفي الخطاب

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

لكي يتحقق التواصل الحقيقي لا بد من أن تكون هناك قنوات اتصال بين الطرفين او مشتركات تربط بينهما ، ومن ثم فإن التعرف على أنواع هذه المشتركات وحجمها . يكشف عن نوع العلاقة ومستوى التقارب بين طرفي الخطاب . إذ ان كلَّ علاقة بين متصلين لها اسلوبها الخاص ، وأدبها الخاص .وألفاظها ، وعباراتها .

قسّم (الشهري) العلاقة بين اطراف الخطاب على قسمين وهما: العلاقة الأُفقية ، والعلاقة العمودية . والعلاقة الأُفقية هي التي يكون فيها طرفا الخطاب بمستوى واحد من جهة الديانة او العرق او الجنس . أما العمودية فهي التي تكون في مراتب تصاعدية أو سلم تصاعدي . أي أن يقع أحد طرفي الخطاب في درجة أعلى من الآخر[٦] . ويمكن اضافة تقسيم آخر للعلاقات العمودية ، وهو :

العمودية الذاتية ، والعمودية العارضة. فعلاقة الانسان بربه علاقة عمودية ذاتية فرضتها طبيعة الخلق والايجاد . وكذلك علاقة الآباء بالأبناء ، ومن ثم فهي تختلف عن العلاقات العمودية الأخرى التي فرضتها طبيعة العمل مثل علاقة الرئيس بالمرؤوس ، أو الجنود بالضباط او غير ذلك من العلاقات العمودية العارضة إن الخطاب وإن اتخذ شكلاً تراتبياً في كل ذلك ، بيد أنه يختلف من جهة الأزمان ، والاحوال ، والسياقات الخارجية الأخرى . فالعلاقة العمودية الذاتية أكثر استقراراً والفاظها أكثر تعبيراً عن معاني الاحترام ، والتقديس ، وأكثر سعة في النوع الإنساني من الروابط الأخرى ، التي تتأثر ألفاظها ،وعبارتها بظروف زمكانية ، ونفعية . وربما تتغير هذه الأساليب والعبارات لأدنى ملابسة بين ألفاظها . ومن ثم يتغير الخطاب بألفاظه واساليبه وعباراته بينهما .فاذا انتهت هذه العلاقة لأي سبب من الأسباب فان الخطاب يتأثر ويختلف لأنه خطاب فرضته ظروف العمل ، والمواقع الوظيفية ، ولكن لو انتهت هذه المواقع لتغيرت المفردات المستخدمة ، والعبارات .

وعلى الرغم من ضرورة الاحتفاظ بالتراتب في هذا النمط من الخطاب بيد أن المسافة المعنوية كلما كانت قليلة كلما حقق الخطاب هدفه وغايته. وليس المقصود بحجم المسافة هو الجانب المادي والمسافة المحسوبة بوحدة القياس المعروفة . فهي وإن كانت صحيحة أحيانا، بيد أنها غير مقصودة هنا . فالمراد بالمسافة في هذا الخطاب هي المسافة المعنوية والرابطة النفسية ، أو الروحية بين اطراف الخطاب. لذا فإن خطاب الولد

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

لوالده يأخذ اشكالاً معينة بحسب قوة العلاقة بينهما على الرغم من احتفاظه بالتراتب الوجودي. فقول الولد لأبيه :(أبي العزيز) يختلف عن قوله: (أبي) فحسب. او قوله له: (حاج) او ربما يسميه باسمه . وقد بيّن (هال) أن حجم المسافة الفاصلة بين المتخاطبين يكشف عن طبيعة العلاقة بينهما كان تكون علاقة حميمية أو عادية أو تراتبية ... او غير ذلك[٧] .وكل واحدة منها لها أسلوبها ، وألفاظها.

ولو تابعنا عناصر الخطاب وطبقناها على إسلوب الدعاء في النص القرآني . لوجدنا ثمة خصوصية في كل عنصر من عناصر الخطاب الدعائي. فالعنصر الأول (المرسِل) وهو الانسان يضم كل من ينتمي الى هذا النوع بالمعنى المنطقي ، إذ إن كل إنسان يمكن أن يكون مرسِلاً .بقطع النظر عن كل انتماءاته ومعرفته بالمخاطب وعلاقته به . إذ يرتبط المرسِل (الإنسان) مع المخاطَب (الله تعالى) برباط الخلق والايجاد . ويشكّل معه ما يسمى بدائرة التخاطب. والمخاطَب وهو الله خالق الكون كله ، والمدبر لأمره. ومما يترتب على ذلك :

١.الكم الصوتي

من المعلوم أن حجم المسافة الفاصلة بين طرفي التواصل يكشف عن المستوى الصوتي بينهما. فالهمس والوشوشة والكلام المسموع والصراخ هو ما يسمى بالعوالم الحسية المرافقة للفعل اللفظي[٨] . تتناسب طردياً مع قوة الرابطة والعلاقة . فالمتحابان تخف أصواتهما في الحديث . للقرب المعنوي وفهم بعضهم بعض . وفي هذا الخطاب يصرّح المخاطَب بقربه من المرسِل بألفاظ القرب مثل : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ق / ١٦ ويطلب من المرسِل التقرب اليه ليكون خطابه مثمراً ومحققاً للهدف ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ...﴾ الاعراف / ٢٠٥ .ودون الجهر يعني عدم رفع الصوت أي ما يسمع الشخص نفسه في القول[٩] . والجهر هنا في القول وليس جهر الاصوات الاصطلاحي . ومن هنا يتبين مستوى الصوت المنخفض في العلاقة القريبة التي يكتنفها التضرع والخوف وهي علاقة الاولياء والصالحين بالله تعالى.

٢.الكم الخطابي

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

يتغيّر كم الخطاب بين المرسِل والمخاطَب بحسب العلاقة بينهما والغرض من الخطب . فالخطاب بين الأحبّة يقلُّ فيه الكلام ، و يشتغل فيه الفهم الإشاري . ويكثر الحذف. فقد تحذف الحروف والألفاظ والجمل أحياناً معتمداً في تقديرها على المخاطَب في حال إيصال غرض معين. فبعض الآباء يفهم خطاب أولاده من الإشارات ، أو تعابير الوجه ، أو غير ذلك ... ويكثر تكرار الحروف والألفاظ والجمل فيطول الخطاب عند ارادة الأُنس بالمحبوب. كما في خطاب نبي الله موسى (ع) مع ربه . أو عند إرادة الالحاح في الطلب لتحقيق الغرض .. وكل ذلك بحسب السياقات. وتقلّ كمية خطاب الانبياء مع المخاطَب (الله) لشعورهم بالقرب منه. ووضوح الغرض عنده. إذ نجد ذلك واضحاً في خطاب نبي الله نوح(ع) لربه عند طلب النصرة : ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ المؤمنون / ٢٦ . وكذلك :﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ القمر / ١٠ هذا الايجاز فرضه سياق الموقف الذي عليه المرسل (نوح) الذي لم يؤمن برسالته الا القليل على طول المدة . وبذلك اختصر كثير من العبارات التي يمكن أن تشرح حالته وما مرّ به لفترة طويلة جداً . وكذلك في خطاب نبي الله أيوب(ع) بعد إن مرَّ به البلاء المعروف ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ الانبياء / ٨٣ فالخطاب في جملة ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ لم يبيّن نوع الضرّ ومقداره ، وما حصل معه وكيف كانت حاله .وماذا يريد من المخاطب وغير ذك .معتمداً في ذلك على القرب المعنوي الذي يستشعره هو من المخاطب. ومن جانب آخر نجد من يودّ الإطالة في التواصل وإدامته أملاً في الاجابة . لشعوره بالبعد عن المخاطب فهو بحاجة الى المزيد من الجمل الاخبارية والطلبية لتمام الخطاب : ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾فصلت / ٥١ .وبذلك فإن كم الخطاب يتوقف على عاملي القرب المعنوي ، والغرض من الخطاب .

تشكيل دائرة التخاطب:

هي ما يتشكل من حركة الخطاب بين المرسِل والمخاطَب ، فالخطاب بين المرسِل (الانسان) و المخاطَب (الله تعالى) يمرُّ عبر حركة قوسي صعود ونزول يشكلان دائرة كاملة يبدأ قوس الصعود من المرسل الى المخاطب ، ويرجع قوس النزول بعكسه ، على إن حركة الخطوط المستقيمة لا تشكّل دائرة متكاملة لذا قلنا

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

بحركة الأقواس.

وتبين نصوص الخطاب القرآني هذه الدائرة التضامنية التي ترسم العلاقة المتواصلة بين طرفي الخطاب . وذلك عبر عناصر معجمية وأساليب قرآنية ، وبعض الإشاريات التي أسمهت جميعاً في تكوين هذه الدائرة التضامنية.

فالتقابل بين مادتي (دعا) و (أجاب) بمشتقاتها المختلفة تبين النمط الاستراتيجي التضامني الذي وظفته بعض النصوص لرسم هذه الدائرة . ولفظ (دعا) في اللغة هو ((ان تميل الشيء اليك بصوت و كلام يكون منك))[١٠] . ومن هذا المعنى يتبين معنى (أجاب) أما في الاصطلاح ، فإن الدعاء لا يخرج عن معنى طلب الانسان من ربه التوجه اليه .

وقد تكرر هذان اللفظان (دعا ، أجاب) في أكثر من نص لتأكيد هذه الحركة المستمرة ففي هذا الخطاب القرآني ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة / ١٨٦ نجد أن تكرار مادة (دعا) ثلاث مرات بمشتقات مختلفة . ومادة (اجاب) مرتين. لتأكيد الإرتباط بين الحركتين . والحثّ على إرسال الخطاب بشكل مستمر زيادة في التواصل . وجاء التقابل بشكل خاطف وسريع ليدل على ضرورة الإرتباط في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ .. ﴾ غافر / ٦٠ ولم يفصل بينهما أي فاصل لغوي مثل (الفاء أو ثم) لتدل على سرعة حركة الدائرة في ظروف معينة وحالات خاصة ، نتعرض لها فيما بعد . على أن تكرار ضمير المتكلم في هذا الخطاب يدلُّ على تأكيد الانتماء ، والارتباط لخلق أجواء التواصل المستمر فقد تكرر الضمير (يا) المتكلم في قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ..... ﴾ سبع مرات . ومرتين في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ....عبادتي ﴾ غافر / ٦٠ لبيان الإرتباط مع المخاطب (عبادي ، عني ، فاني ، لي ، بي ، عبادتي) فضلاً عن أنها اهم خطوة في طريق هذه الاستراتيجية ، وهي ان يكون الخطاب متوجّهاً الى الله حصراً وليس لغيره كما في (دعان، ادعوني) .

ويدخل الشرط مهيمنا اسلوبياً في الآية الاولى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي... ﴾ (اذا دعان ..) فتوقف الشرط عل

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

الجواب في الجملة الشرطية يبين شروط هذه الحركة من جهة ، ويبين اكتمال الدائرة من جهة اخرى بحركة متواصلة يتحقق فيها الجواب بتحقق الشرط .

إذ إن حركة الخطاب هنا لا تصدر من جهة واحدة وتنتهي عند المتلقي ، كما هو في الخطابات البشرية ، بل إن هذا النمط من الخطاب ينتظر فيه المرسِل الردّ من المخاطَب وإجابته على مضمون خطابه .

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ

اذا دعان الداعي فاني اجيب

ومما يزيد في الحركة وتمام التضامن ذيل الآية الاولى : ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ إذ اتضحت معالم دائرة الخطاب بشكل مستمر عبر هذه الادوات اللغوية المتضامنة لإيجاد استراتيجية تضامنية مستمرة :

إذا امرتكم ..... استجيبوا لي .... ثم ادْعُونِي..... استجب لكم

نلاحظ أفعال الدعاء والإجابة بكل صيغها تشكّل محاور الدائرة وكلها من أفعال الكلام التي تؤدي نمطاً من التفاعل والحركة باتجاه المطلوب .لتستمر الدائرة بأفعال الكلام في صيغ فعل الأمر(ادعوني) والمضارع المقترن بلام الأمر (فليستجيبوا) وقوسها الثاني افعال المضارع . ومن ثم ترسم الآيات دائرة التخاطب بشكل واضح إذ يمثل كل طرف نصف الدائرة.

وكلما تضمنت العلاقة شحنة من الإنفعالات المؤدية الى غاية تواصلية معينة كلما انتج ذلك أسلوبا إبلاغياً متميّزاً عن غيره من الآثار النفسية[١١]. ومن هنا إذا أردنا أن نرسم دائرة التخاطب على وفق ما صورته الآيات القرآنية نجد أنها دائرة متحركة تختلف عن غيرها من الخطابات من جهة الهدف والغاية ، والآلية المتوخاة في التواصل بين المرسِل والمخاطَب . إذ إن المخاطب وهو الخالق تعالى يديم الاتصال بحركة راجعة على المرسِل ويطلب منه التواصل والإرتباط المستمر . وتؤدي الجملة الشرطية دوراً واضحاً في تشكيل هذه الدائرة .

ومثله قوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ .. ﴾

دعاء الأنسان الإجابة من الله

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

ادعوني استجب لكم

وفي هذه الآية ايضا نجد مادة (دعا) و(اجاب) تشكل التضامن بين المرسل والمخاطب عبر تشكيل هذه الدائرة

ومن جهة أخرى رسم القرآن دائرة خطاب أخرى تحرك الخطاب وهي ان الله تعالى اذا طلب من العبد بالخطاب النازل في الأوامر والنواهي والتمسك بالدين والعقيدة فان على العبد ان يجيب الطلب ويستمر بالتواصل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ الانعام / ٤٠ ومن ثم إذا رفع الانسان خطابه الى الله وتمّت الإجابة تحرّكت دائرة التواصل بشكل طبيعي وذلك إذا استشعر الربوبية الحقيقية مع نفسه في حالات الشدة والعسر الواضح من تكرار لفظ (اتاكم) و(عذاب ، الساعة) والعودة الى الله في تلك اللحظة فان الله تعالى يجيب دعوته لتحقق شرط التواصل في تلك الحال وهو الإخلاص في الارسال.

الاساليب اللغوية

من المعلوم إن الأمر ،والنهي ،والنداء ، والتمني، والترجي ... وغيرها هي أساليب طلب بحث فيها النحاة ، والبلاغيون ، والأصوليون . وكل واحد ينظر اليها من جهة الوظيفة العلمية التي يريد أن يصل بها الى غرضه وموضوعه. ولها صيغ خاصة. وتدخل المادة الى جانب الصيغة في أداء الاسلوب.

الامر والنهي مثلاً في النص القرآني يشكلان أهم ركائز الاستراتيجية التوجيهية لأن النص القرآني نصٌّ تشريعي يتوافر على الاحكام ، والقوانين . توجّه الى الانسان تطبيقاً والتزاماً في أطر وسياقات معينة رسمها النص القرآني على وفق الاستراتيجية التوجيهية . ويمكن أن تعطي دلالات أخرى بحسب القرائن التي تحيط بها . فالأمر يمكن أن يعطي معاني أخرى غير الطلب الملزِم للمخاطب فقد يأتي للتحذير ،والإلتماس ، والإنكار ، والتوبيخ ، والدعاء كل ذلك بحسب السياقات المحيطة . وكذلك النهي والأساليب الطلبية الاخرى . أي أنها يمكن أن تأتي من الأعلى للأدنى أو بالعكس أو بين المتناظرين في الرتبة وإذا جاءت من الاعلى فهي في الغالب تدخل في الاستراتيجية التوجيهية . أما إذا وردت بالعكس كقول الولد لأبيه:

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

اعطني بعض النقود ، و لا تأت الى مدرستي اليوم .. وهكذا فأنها خطابات صاعدة. وبذلك يمكن ان تكون على وفق الاستراتيجية التضامنية أو التلميحية بحسب القرائن . فاذا احيطت بأسلوب التأدب فالتضامنية أوضح . فلو استعرضنا بعض العبارات لنتبين منها الاكثر تضامنية :

أبي اعطني بعض النقود

أبي لا تتركني من غير مصرف

أبي العزيز لا تتركني من غير مصرف

أبي العزيز ولدك لا يملك النقود

من الواضح جداً فيما مرّ إن الخطاب يتدرج في مستوى التضامن من الاقل للأكثر .والعبارة الاخيرة أكثر تأثيراً وأكثر تضامناً من الولد لأبيه . ويبدو لي إن الجملة الخبرية التي تؤدى معنى طلبياً تعطي تضامناً اكثر من غيرها فهي تفيد الطلب غير المباشر . ومن المعلوم كلما قلت المباشرة بالطلب كبر التضامن ، وكلما ازداد التضامن دخل الخطاب في استراتيجية التلميح . و يبدو لي أن ثمة تراتبية بينهما أحياناً تتجلى في هذا الخطاب أكثر . ولو قرأنا خطاب الأنبياء لربهم لوجدنا مستوى عالياً من التضامن والقرب والإرتباط بالمخاطب والثقة الكبيرة به، وبتحقيق الاجابة منه .

ففي صيغة الطلب (إفعل) نجد خطاب بعض الأنبياء ورد محمّلاً بالثقة بتحقيق مضمون الخطاب من المخاطب ففي خطاب ابراهيم (ع) لربه نجد الطلب المباشر يتضح من قوله : ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾الشعراء / ٨٣ مختصراً على الطلب لمعرفته بالمخاطَب ومدى ارتباطه به من جهة الخلق والايجاد . إذ ورد في السياق السابق لهذه الآية قوة انتماء إبراهيم للمخاطب خلقاً وهداية . إذ يرى التفضل والنعمة من المخاطَب مهيمنة عليه إذ يقول ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾الشعراء / ٧٨ . وهو مرتبط معه بوجوده الدنيوي من إعطاء ديمومة الحياة بالأكل والشرب: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ الشعراء / ٧٩ . ومن كونه سبباً لشفائه ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ الشعراء / ٨٠ وقد نسب المرض لنفسه والشفاء لربه ((واستعمل فيه من الأدب البارع أن ابتدأ باسم الرب وقصر مسألته على النعم الحقيقية الباقية))[١٢]. لأن حياته

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

وموته بيد المخاطب فأي ارتباط يشعر به المرسل ؟ ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ فقد مهّد نبي الله ابراهيم (ع) بمستوى من التأدب الأقصى قبل ارسال خطابه الأمر الذي جعله بعد ذلك يطلب منه ﴿رَبِّ هَبْ لي ... ﴾. وفي إضافة لفظ (رب) لياء المتكلم دليل الحب والإرتباط ، وإرادة الإجابة على أننا نجد في الآيات التي سبقت هذه الآية اضافة لفظ (رب) الى (العالمين) وذلك في سياق حديث نبي الله ابراهيم (ع) عن أعدائه ، إذ قال : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ الشعراء / ٧٧. و كلما كان المرسِل قريباً من المخاطب أو يريد التقرب أكثر نجد عبارات التضامن واضحة. وقد تبين ذلك في طلبه الآخر بصيغة (افعل) في النص نفسه ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ الشعراء / ٨٣ ، فالصالحون قريبون من المخاطب ويريد ان يلتحق بهم ليحقق التضامن اكثر .

ومن ذلك ايضا ما ورد من خطابات اخرى بالصيغة ذاتها وهو طلب مباشر يأتي به المرسل غالباً في خطاباته المتعلقة بوجوده المعنوي : ﴿ أدخلني مدخل صدقٍ ﴾الاسراء/ ٨٠. و ﴿اغفر لي ولوالديّ﴾ نوح / ٢٨ ، ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ ﴾ ال عمران / ٩. و ﴿ واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ البقرة / ٢٨٦ وغيرها كثير نجد اغلب صيغ هذا الخطاب هي صيغة الامر الذي يخرج للدعاء لأنه من الانسان لربه ومن ثم فان طلب المغفرة ، والرحمة ، والنصر وغيرها من المخاطب يدل على ثقة المرسل بتفاعل المخاطب وإجابته وان المرسل داخل في سلطة المخاطب وتحت رعايته لذا فهو ينتظر الجواب عن طريق رفع طلبه بتأدب والحاح احياناً لشعوره الفطري بان إجابة المخاطب وسماعه له ستحصل ولو بعد حين . وكل ذلك يتعلق بعلاقة المرسل بالمخاطب فالمرسل النوعي (الانبياء والصالحون) يخاطب المخاطب بكل ثقة.

وتقل المباشرة في هذا النوع من الخطاب مع اسلوب النهي الذي يأتي للدعاء ومن اهم صيغه (لا تفعل) وكلما قلت المباشرة ازداد التضامن فإذا قال الولد لأبيه :

لا تجعلني وحدي .. فإنه اقوى استعطافاً للإجابة من قوله : اجعل معي احد الاولاد .

وخطاب زكريا لربه : ﴿لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ اكثر استعطافاً وتذللاً للمخاطب من قوله: ﴿هَبْ

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً ﴾ ال عمران / ٣٨ بالمستوى الذي يستنزل فيه الاجابة وهو بأقصى حالات التأدب مع المخاطب لرفع حالة الفردية التي يعيشها . لذا جاءت الاجابة بعد الآية الاولى مباشرة : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾ مع إنه في الآية الثانية التي وردت بصيغة (افعل): ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ال عمران / ٣٨ .جاءت الإجابة بسياق مختلف ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ وهو سياق التبشير في المستقبل القريب . أما الصيغة الاولى في الخطاب فقد جاء الجواب بشكل فوري ومباشر .وكذلك ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا.. ﴾و ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ و ﴿قالوا رَبَّنا لا تَجعَلنا مَعَ القَومِ الظّالِمينَ﴾ الأعراف/ ٤٧ فهذا الخطاب هو مستوى آخر من الاستعطاف يطلب فيه المرسل رفع أمر سلبي عنه . بوصفه يشعر بانتمائه للمخاطب القادر على اجابة طلبه .

أما إذا جاء الخطاب بشكل غير مباشر ورفع المرسل طلبه بالجملة الخبرية مثلاً فان الاستراتيجية التلميحية تكون أقرب الى تخطيط المرسل . ويرى (الشهري) إن المرسل يختار الاستراتيجية التلميحية بالعدول عن الخطاب المباشر الى غير المباشر لأسباب سياقية أو مراعاة للتأدب[١٣]. وهو ما نجده في خطاب نبي الله ايوب (ع) : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ الأنبياء/ ٨٣ وكذلك في خطاب نبي الله يونس (ع) : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الأنبياء / ٨٧ .

وهنا يتبين التأدب الأقصى مع المخاطب وعدم إرادة التصريح بالطلب والاكتفاء بالإخبار عن الحال والتلميح لها مع إن سياق حال المخاطب هو سياق الشدة ، والعسر الذي يتطلب بحسب العادة التصريح بل الصراخ والإلحاح بالدعاء بصيغته الاصلية ، بيد أننا أمام مرسلين نوعيين لهما علاقة حميمة مع المخاطب لم تؤثر عليهما الازمة التي هما فيها ، ويشعران بالانتماء والشمول بالرحمة والثقة بالله بل وصلت بهم الى الخطاب الأرقى بحسب هذا المستوى الى الوثوق بإجابة المخاطب بقطع النظر عن صيغة الدعاء .ومن ثم فان المرسل يرى إن المخاطب قريب منه جداً لا يحتاج معه أن يصرح له بحاله بل لعلمه بأن المخاطَب يعلم بحاله ، وفي

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

هذا الخطاب يبدو مزيجاً من الاستراتيجية التضامنية والتلميحية .

التأدب في الخطاب

المتكلم – كما يرى طه عبد الرحمن – ذاتٌ محمولةٌ على التهذيب . والتهذيبُ عنده على درجتين وهما التأدب ، والتخلق ، فالتأدب هو أن يأتي المتكلم بالقول بدلالته القريبة ويقوّي الانتفاع العاجل.. أما التخلق فهو أن يأتي المتكلم بالقول بدلالته البعيدة والقريبة ويقوي الانتفاع العاجل والآجل . وهناك التأدب الأقصى وهو الإفادة من أقصى اساليب التأدب مع الآخر(١٤).

وبقطع النظر عن نقد طه عبد الرحمن لقواعد التخاطب المتفرعة عن مبدأ التأدب التي ذكرتها (لاكوف) . فإن هذه القواعد تؤسس لنظام لغوي يمكن الإفادة منه في تحليل الخطاب وهذه القواعد :

هي قاعدة التعفف ومقتضاها : لا تفرض نفسك على المخاطب . وأن يستعمل المتكلم العبارات التي تمكّنه من حفظ المسافة بينه وبين المخاطب .

وقاعدة التشكك ومقتضاها : أن يتجنب المتكلم اساليب التقرير ويستعمل اساليب الاستفهام بدلاً عنها ويترك للمخاطب اتخاذ القرار .

وقاعدة التودد ومقتضاها : إظهار الود للمخاطَب . بالإفادة من الصيغ والأساليب التي تقوي التضامن مع المخاطب (١٥) . ومن ثم فإنها تتناسب مع الخُلُق الإنساني وإظهار مظاهر الأدب مع المخاطب في الخطاب التراتبي ، بأن يكون المخاطب أعلى مرتبة من المرسل كما هو الحال في هذا الخطاب موضع البحث يقرّب المرسل من المخاطب أكثر مع الإحتفاظ بالتراتبية . ومن الملاحظ في خطاب الأنبياء – بوصفهم تأدبوا بالأدب الإلهي وهو ((الهيأة الحسنة في الأعمال الدينية التي تحاكي غرض الدين وغايته)) (١٦) . لذا نجدهم ينسبون النقص لأنفسهم عند خطابهم مع الله وطلبهم منه . وهو ما يسمى في استراتيجية التضامن بتأنيب الذات وهي أن ينتقص المرسل من قدرته وسلوكه أو أفعاله أمام المخاطب(١٧) .

نجد ذلك جلياً في خطاب الأنبياء لله تعالى .إذ إن نبي الله آدم نسب لنفسه الظلم ثم طلب الرحمة والمغفرة من ربه. إذ يقول : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾الأعراف / ٢٣.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

ونبي الله نوح ينسب النقص لنفسه في خطابه : ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ هود / ٤٧ تأدباً مع ربه[١٨] . ومن ذلك ايضاً خطاب موسى (ع) : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ القصص / ٢٤ . إذ يرى أغلب المفسرين أنه طلب من ربه الطعام . ولكن هنا بطريقة العرض ، وعدم التصريح بالسؤال[١٩]. وهو وصف لحاله وفقره الى ما انزل الله من الخير وهذا الوصف يتضمن سؤال الله تعالى أنزال الخير عليه[٢٠].

ومن الأدب في الخطاب ايضاً أن تذكر المخاطب بأفضل صفاته . لاسيما الصفات التي تربط المرسِل بالمخاطَب لذا نجد نبي الله ابراهيم (ع) كلما طلب حاجة في خطابه كررّ اسم (الرب) . لأن الربوبية هي سبب الإتصال . ومن أدبه في الخطاب ايضاً أنه يذكر اسماً من اسماء الله ، أو صفة من صفاته التي تتناسب مع مضمون الطلب مثل (الغفور والرحيم وسريع الدعاء)[٢١] .وهو من استراتيجيات التضامن في الخطاب أن أن يذكر المرسل اسم المخاطب أو كنيته أو لقبه أو بعض صفاته للدلالة على القرب المعنوي وإرادة التودد الى المخاطب.

ويبدو أنه (ع) وسائر الانبياء يأتي خطابهم غير مباشر و بأقصى حالات التأدب مع الله إذا كان مضمون الطلب يتعلق بقضاياهم الشخصية، لذا فإن خطابات موسى (ع) الاخرى وردت بصيغ فعل الأمر فهو حينما وَكَزَ الرجلَ القبطي: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ القصص / ١٦ وحين خرج من مصر قال: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ القصص / ٢١ ولما احتاج الى الطعام جاء الخطاب بالجملة الخبرية قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وهذا الدعاء الأخير دعا به وهو في غاية التأدب والخشوع ، مع انه محاط بالأزمات وهو في أشد الحاجات[٢٢]

ومثله فيما مرَّ من خطاب أيوب (ع) ، وخطاب يونس(ع) وهو في بطن الحوت . ومن الملاحظ ان هذه الاستراتيجية حققت مضمون الخطاب ، وحصل التواصل بين المرسل والمخاطب. والتواصل بأفضل تعريفاته هو ((التبادل الكلامي بين الشخص المتكلم الذي ينتج ملفوظا موجها الى متكلم اخر وهذا المخاطب يلتمس الاستماع او الجواب الصريح او المضمر حسب نمط الملفوظ))[٢٣] . وقد تحقق الجواب الصريح بلفظ

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

(فاستجبنا) في النص القرآني . إذ جاء في سياق هذه الخطابات وتكرر معها. ففي خطاب ايوب (ع) : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ وفي خطاب يونس ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ وفي خطاب زكريا ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾ وهذا كاشف عن مستوى التضامن بين المرسِل والمخاطَب وحصول حالة التواصل من الخطاب .

الإشاريات

الاشارة هي : ((فعل يستعمل فيه متكلم أو كاتب صيغاً لغوية لتمكين مستمع أو قارئ تحديد شيء ما))[٢٤] . ولا يعني إنها تشمل أسماء الإشارة فحسب بل تعني في المجال التداولي الضمائر وأسماء الإشارة ، وأسماء الزمان وكل ما يمكن الإفادة منه في تحديد شيء ما . وتدخل الإشاريات في هذه الاستراتيجية مؤشراً للانتماء ، و دليلاً على الاتفاق وتقوية العلاقة مع المخاطب ، وتؤثر في معنى الخطاب[٢٥]. فالضمائر في اللغة العربية لها دلالات نحوية من جهة، وتداولية من جهة اخرى . فثمة فرق بين خطاب الطالب لأستاذه: (استاذي العزيز) وقوله (الاستاذ العزيز) فالأول يشعر المتلقي بدوام الارتباط والقرب وحب استمرار العلاقة بسبب الضمير (ياء) المتكلم التي تعطي هذا المعنى. والجملة الثانية خالية من أدوات التضامن فهي أقل ارتباطاً من الاولى . وكذلك الفرق بين قول الطالب لأستاذه في حال المدح له على جهوده :(أستاذ انت الذي علمتنا كثيراً من العلم ..) وقوله :(أستاذ علمتنا كثيراً من العلم) فالضمير (أنت) يشعر بالحصر ، وقوة الفائدة . وكذلك بقية الضمائر ، وفي أسماء الإشارة نجد فرقاً بين قوله لأستاذه امام الآخرين (الأستاذ هذا الذي علمنا ..).

تستعمل الأدوات الدالة على التكلم (أنا ، تاء المتكلم) أو استعمال صيغ التعجب الدالة على الانفعال في تعبير الفرد بشكل مباشر وأعطاء الإنطباع بوجود الانفعال الصحيح أو المصطنع [٢٦] . وهذه الضمائر وأسماء الإشارة نجدها في هذا الخطاب القرآني بشكل واضح :

١.الضمائر

- الضمير (نا) ضمير متصل يشير الى جماعة المتكلمين ويأتي للرفع والنصب والجر .و في الخطاب القرآني الخاص بالدعاء يعبّر عن الإنتماء والإرتباط بالمخاطب ففي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا

ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾المؤمنون / ١٠٦ . تكرر الضمير (نا) ست مرات للدلالة على الحرص على الإنتماء وإرادة التواصل مع المخاطب ، وتكثيف الطلب على المرسل واستعطافه للإجابة . والضمير (نا) يفيد التضامن هنا بين جماعة المتكلمين والمخاطب من جهة ، وبينهم أنفسهم من جهة اخرى. وفي هذا النص إشارة واضحة للتخطيط للخطاب . وذلك بملاحظة سياق هذه الآية فقد جاء قبل هذا الدعاء قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا... ﴾ المؤمنون / ١٠٩ وفي الآية التي جاءت فيما بعد في السياق ذاته جاء الجزاء في قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ المؤمنون / ١١١ . ومن ثم فالتضامنية جزء من الخطاب الناجح . سواء اكان هذا الخطاب صادراً عن فئة متضامنة مع المخاطب وتريد تأكيد الإرتباط والتضامن وإتمامه . أو من فئة لا ارتباط لها مع المخاطب وتريد تأسيس الإرتباط والتضامن .

فلو تابعنا بعض الامثلة للفئتين نجد الضمير (نا) تكرر في خطاب الفئة الاولى أربع مرات ، ومنهم أهل الجنة، وهم في سياق الحديث عن تمام التضامن: ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ التحريم / ٨ . وتكرر في خطاب المؤمنين ست مرات في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الحشر / ١٠.

و تكرر الضمير (نا) في خطاب هذه الفئة الثانية ثلاث مرات من مرسل يفتقر للارتباط والتضامن المسبق مع المخاطب فاحتاج اليه في حال الشدة والعسر والضيق فالمرسل هنا يريد الارتباط والقرب من المخاطب في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ الدخان / ١٢

– ضمير المتكلم (الياء) الذي يبيّن الإرتباط الفردي بالمخاطب ، وإرادة المرسل بيان الإنتماء والتضامن مع المخاطب . إذ تكرر الضمير في خطاب نبي الله يوسف (ع) ست مرات في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ يوسف / ١٠١ فهو يعترف بفضل المخاطب عليه بإتيانه الملك وتعليمه تأويل الاحاديث ،

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

ثم يذكر صفات المخاطب زيادة في الارتباط بعد ذلك يطلب أن ينتمي الى جماعة النخبة المتضامنة مع المخاطب ف(الصالحون) يمثلون التواصل النوعي مع المخاطب ، ومن المعلوم إن يوسف (ع) عاش فترة نبوته بعيداً عن والده واهله لذا فهو يركز على الارتباط الفردي مع المخاطب . وتكرر الضمير ذاته في خطاب نبي الله سليمان خمس مرات زيادة في تأكيد التضامن . ومن الملاحظ إن ضمير المتكلم (الياء) يأتي في خطاب الانبياء بشكل واضح وكبير في حال طلبهم الانتماء والتضامن مع المخاطب تارة . وبالاشتراك مع المرسل المثالي تارة اخرى . وهم (الصالحون) لذا نجد إن هذا الطلب تكرر في خطاب نبي الله سليمان (ع) ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ النمل / ١٩ .

– الضميران (يا المتكلم) و(نا) المتكلمين في سياق واحد في بعض خطابات الانبياء ففي خطاب نبي الله ابراهيم (ع) :﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ ابراهيم / ٤١ إذ تكرر ضمير المتكلم (نا) مرتين في (ربنا) ليدل على ارتباطه مع ذريته بالله تعالى وتكرر الضمير المفرد خمس مرات لينفرد عن غيره في مستوى التضامن في مجال الصلاة والمغفرة فهي اعمال فردية تتفاوت من شخص لآخر.

– الضمير (انت) وهو من ضمائر الرفع المنفصلة يأتي به المرسل في بعض الخطابات ليبين اهتمامه بالمخاطب وتضامنه معه كمن يقول لأستاذه :

أستاذنا انت الذي علمتنا كثيراً من العلم .

فهو اكثر تضامنا من قوله له : استاذنا علمتنا كثيراً من العلم .

وبذلك فإن استعمال هذا الضمير في سياقات خطابية معينة يدلّ على القرب اكثر من المخاطب وقد ورد في بعض خطابات الانبياء منها : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ البقرة / ١٢٧ . و ﴿ .. وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة / ١٢٨. وغير ذلك في سياق ذكر صفات المخاطب وحصرها فيه . و في قوله تعالى : ﴿ ..وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ..﴾ ال عمران / ٨ . يرى صاحب تفسير

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

الميزان إن وجود الضمير(انت) ووجود لام التعريف في (الوهاب) يدلُّ على الاختصاص أي اختصاص الرحمة بالله تعالى[٢٧] . ومن الملاحظ ايضاً إن المرسِل يذكر صفات المخاطَب التي تتناسب مع الطلب . إذ نجد طلب التوبة يذكر معه صفة التواب والرحيم (تب ، توّاب) و (هب ، وهّاب) . وهو يمثل مستوى من الفهم لمضامين صفات المخاطب التي تؤثر في التجاوب وتحقيق المطلوب . فلا يصح أن تطلب من المخاطب الطعام وتخاطبه بصفة الشجاعة . بل الاصح أن تقول له:

يا كريم اعطني الطعام . لوجود المناسبة بين الطلب وصفة المخاطب التي تخلق اجواء من التواصل والتضامن بين طرفي الخطاب تسهل تحقيق المطلوب .

- الضمير (هو) وهو ضمير الغائب المنفصل يأتي في المجال التداولي لإفادة التضامن والإهتمام بالمخاطب نحو قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ التوبة / ١٢٩.

-تبيّن الضمائر المتصلة والمنفصلة والتي تخص المتكلم المفرد والجمع في خطاب موسى (ع) زيادة في الارتباط بالمخاطب والحاجة اليه في الموقف الصعب : ﴿ قالَ رَبِّ لَو شِئتَ أَهلَكتَهُم مِن قَبلُ وَإِيّايَ أَتُهلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنّا إِن هِيَ إِلّا فِتنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَن تَشاءُ وَتَهدي مَن تَشاءُ أَنتَ وَلِيُّنا فَاغفِر لَنا وَارحَمنا وَأَنتَ خَيرُ الغافِرينَ﴾ الاعراف / ١٥٥ . إذ نجد في الخطاب ضمير المتكلم المفرد المتصل وضمير المتكلم المنفصل ، و ضمير المتكلم المتصل للجمع تكرر ثلاث مرات ، وضمير المخاطب المنفصل تكرر مرتين . كل ذلك لتكثيف الصلة والإرتباط في هذا السياق الذي يبين حال المرسل مع مجموعته .

الحذف في النداء

يعرف بعض النحاة المنادى بإنه ((المطلوب اقباله بحرف نائب مناب ادعو لفظاً او تقديراً))[٢٨] . و يبدو إن المراد بإقبال المنادى لا يعني الاقبال الحسي فحسب ، بل هو طلب التوجه والإنتباه . ومن المعلوم في النحو ان النداء له ادوات ، هي (يا ، و ايا ، هيا ، والهمزة..) . وفي النداء تحذف (يا) النداء احيانا وتحذف ياء المتكلم في المنادى المضاف الى ياء المتكلم فيصح ان تقول: يا غلام وانت تريد يا غلامي لان النداء يأتي

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

للتخفيف . ولأن حرف التنبيه يمكن الإستغناء عنه إذا كان المنادى متوجهاً ومقبلاً عليك ومنتبها لما تقول ويكون ذلك في المنادى المعرفة [٢٩]. فيجوز أن تقول : (زيد اقبل) . وتريد (يا زيد اقبل) .وقد تحذف (يا) النداء في بعض الخطابات لإرادة القرب إذ يقول الطالب لأستاذه: (استاذ..) يعطي نوعاً من القرب يختلف عن قوله (يا استاذ) فالبعد واضح في الخطاب الثاني . ومن المعلوم ان القرب والبعد هنا معنويان .

وقد ورد النداء في هذا الخطاب في القران الكريم في آيات عدة تلازمه حالة الحذف في اداة النداء تارة وفي (ياء) المتكلم المضافة الى المنادى تارة اخرى ، وربما يجتمع الحذف في بعض الخطاب وقد تكرر هذا الحذف المزدوج مع لفظ (رب) أي المخاطب المنادى المضاف الى (ياء) المتكلم الذي حذفت منه (يا) النداء و(ياء) المتكلم ليعطي زخما تضامنياً مع المخاطب بعد أن يُشعر نفسه بالقرب فلا يحتاج الى (يا) النداء ويريد المرسل أن يخضع نفسه الى المخاطب فيحذف الدال على وجوده وهو (يا) المتكلم ليبدأ الخطاب بلفظ (رب) والأصل (يا ربي) وقد تحدث النحاة عن هذا الحذف ، وما يهمنا في هذا الخطاب هو نداء الانسان لربه ، فقد لوحظ إن (يا) النداء محذوفة في هذا الخطاب مع لفظ (رب) فجاء الخطاب (ربِّ ، ربنا) لبيان القرب ، أو إرادة القرب من المرسل ، و إن (يا) النداء ترد للمنادى البعيد ومن هنا فان حذفها يراد به القرب . وبذلك فإن النصوص الخاصة بهذا الخطاب وردت من دون (يا) النداء :

﴿رَبِّ اجعَل هــذَا البَلَدَ آمِنًا .. ﴾البقرة / ١٢٦

﴿رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً .. ﴾ المائدة / ١١٤

﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا.. ﴾ ال عمران / ٨

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي.. ﴾ الاعراف / ١٥١

انفتاح زمن الخطاب

يمكن التعرف على زمن هذا الخطاب من آيات القران الكريم نجد الآيات الخاصة بهذا الخطاب تعطينا زمنا منفتحاً رسمته بعض الثنائيات الدلالية : الغداة ، والعشي . أو الغدو والآصال . . إذ تعطي التوقيت المتحرك المناسب لفعل الخطاب نحو قوله تعالى : ﴿ واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

وَجْهَهُ .. ﴾ الكهف / ٢٨ الغُدْوة ، بالضم : البُكْرَة ما بين صَلاةِ الغَداة وطلُوعِ الشمس[٣٠]. والعشي والعشية من صلاة المغرب إلى العتمة و قيل ما بين زوال الشمس إلى وقت غروبها، كل ذلك عشي، فإذا غابت الشمس فهو العشاء، وقيل: العشي من زوال الشمس إلى الصباح، ويقال لما بين المغرب والعتمة : عشاء[٣١] . والغدوة والغداة هي من أول النهار. الأَصِيلُ : العَشِيُّ ، والجمع أُصُل وأُصْلان وآصال[٣٢]. وقوبل بالآصال في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ الاعراف / ٢٠٥ كما قوبل بالعشي في الآية السابقة[٣٣] . والعَشِيُّ عند الراغب : من زوال الشمس إلى الصّباح . قال تعالى : ﴿إِلَّا عَشِيَّةً، او ضحاها ﴾ النازعات / ٤٦ . كما يرى اهل اللغة.

إن مفردة (عشا) في النص القرآني تدل على عدم القدرة على الادراك بالبصر او بالبصيرة أما لسبب خارجي أو سبب ذاتي . و في الآية السابقة تدل(عشا) على بداية الليل . وبذلك يمكن أن نفهم زمن الخطاب على وجهين :

الأول : احد الوقتين المهمين من اليوم وهما: أول النهار ، وأول الليل .

الثاني : أن يُراد كل النهار والليل ليكون اليوم بليله ونهاره ظرفاً للخطاب .

وبهذا فإن هذين اللفظين الزمنيين يستوعبان النهار كله ، وربما شطراً من الليل . ومن ثَمّ فإن زمن الخطاب الصاعد والتواصل بين المرسِل والمخاطَب على وفق هذه الدلالة هو زمن مستمر لا يتوقف عند وقت محدد . ولا يعني أن المخاطَب يجب عليه أن يختار أحد الازمان بل يجوز له ان يُرسل خطابه في كل الازمان . وبذلك يرسم لنا النص القرآني خطوة من خطوات التخطيط الاستراتيجي وهي ملاحظة انفتاح الزمن في التواصل . ومعنى ذلك إن من مقومات التواصل المثمر والمعطاء في هذا النوع من الخطاب (الدعاء) ينبغي ان يكون مستمراً ومنفتحاً على كل الازمان . وبذلك فهو يختلف عن التواصل البشري الذي تتحدد فيه الازمان وتختار بدقة. أي أنّ الزمن في الخطابات البشرية يؤخذ بدقة عند المرسل والمخاطب .فإن عدم توافق زمن الخطاب مع احدهما يؤدي الى عدم الوصول الى الهدف من الخطاب.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

سياقات احوال المرسل

ثمة ثنائيات قرآنية تشكّل الاحوال النفسية ، والروحية ، والكيفيات الجسمية لهذا الخطاب .وترسم سياقات المرسِل وعلاقته التخاطبية مع المخاطب لديمومة الإتصال ، وبمتابعة هذه الخطابات نجد أنها تأتي مع مشتقات الفعل (دعا) لأن النصوص التي وردت فيها تهتم برسم الاستراتيجية الملائمة لهذا الخطاب .و من هذه الثنائيات :

١.الخَوْف وَالطَمَع قال تعالى :﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا.. ﴾الأعراف / ٥٦

١. الرَغبَة والرَهَبة قال تعالى: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ الأنبياء/ ٩٠

٢. التَضَرُّعًا وَالخُفْيَةً قال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً .. ﴾ الاعراف / ٥٥

٣. القَيام والقعود قال تعالى : ﴿... دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا .. ﴾ يونس / ١١

وهذه الثنائيات ذُكرت في النص القرآني لبيان أهم الخطوات الاستراتيجية للتواصل وهي تكشف عن الاحوال النفسية والاجتماعية المتنوعة لدوام الاتصال . وايجاد أقصى حالات التأدب مع المخاطَب لضمان وصول الخطاب في كل الأحوال والمقامات. أو ما يسمى بمبدأ التأدب الأقصى الذي يتضمن تقليل الكلام غير المؤدب مع المخاطب والإكثار من الكلام المؤدب معه[٣٤] ، بل يحصل التواصل أحيانا بقلة الكلام مطلقاً. فضلاً عن الحركات والايماءات والمشاعر التي تقلل المسافة بين المرسِل والمخاطَب . ومن هنا نجد إن البعد غير اللفظي في التواصل مع الله تعالى يشكّل عاملاً مهما في التواصل فكما أن التواصل الإنساني لا ينحصر في تبادل الالفاظ بل يتجاوزه الى الحركات والإيماءات وطريقة الجلوس والتعاطي مع الفضاء والزمان. فإننا نلتمس ذلك في خطاب الإنسان مع ربه في أحوال معينة ، وكيفيات معينة مثل وضع الجسد أو الحالة النفسية الإنفعالية أو الإجتماعية .

الخوف والطمع

إذا تابعنا هاتين المفردتين اللتين تمثلان سياقات حال المرسل في خطابه مع الله . نجد عطف الطمع على

الخوف في سياق هذا الخطاب الذي يرسم واحدة من الخطوات المهمة للمرسل وقد وردا مقترنين بلفظ (دعا) ومشتقاته في موردين :

الأول: في قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ السجدة / ١٦

الثاني: في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الأعراف / ٥٦

فمن سياق الإخبار الدال على الطلب في الآية الاولى وبدلالة الآية الثانية ، الى الطلب الصريح في الآية الثانية التي وردت بمضمون الخطاب نفسه ، نجد حالتي الخوف والطمع مهمتين في الخطاب الصاعد لا يستغني عنهما المرسل وينبغي عليه تحصيلهما مجتمعتين . فالخوف هو توقع مكروه عن أمارة مظنونة. والطمع توقع محبوب عن أمارة مظنونة ، أو معلومة[٣٥]. وفي الحالتين نجد أن النص القرآني يرسم لنا مناخات روحية عالية إذ احيط بحالتي الخوف والطمع ، وهما من الحالات النفسية الباعثة على التواصل. فيبين الخوف من النار والطمع بالجنة إن خطاب الانسان لربه خطاب محاط بالحذر والعمل بشدّة على تحصيل المطلوب . من ثم نجد هذين النصين التوجيهين يبينان حالة المرسِل للخطاب الصاعد . لذا نجد الحالتين وردتا في سياقين مختلفين الأول منهما في سياق التجافي من جهة السابقة ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ ﴾، والانفاق من جهة اللاحقة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ فهي اعمال تزيد من علاقة المرسِل بالمخاطَب ،فضلاً عن أفعال المضارعة الدالة على الاستمرار لإدامة حال الإتصال . إذ نقرا (تتجافى، يدعون، ينفقون) وهي أفعال باعثة على التفاعل والعمل المستمر . إذ إن التجافي هو ترك المضجع للإلتجاء الى الله تعالى .

وفي الآية الأخرى نجد أسلوبي الأمر والنهي يشكّلان سياق الآية . فالأمر وهو طلب الفعل ، والنهي هو طلب الكف عن الفعل. وهما يحركان الخطاب في حالتي الخوف والطمع ، ويحفّزان المرسِل على متابعة الخطوات الاستراتيجية للوصول الى إجابة المخاطب . ويكوّن مع الآية الأولى الدالة على التجلي سياق حال روحاني عالي الذبذبة . على أن ما يقابل الخوف هو الأمن وليس الطمع، والطمع يقابله القناعة، ومن هنا فإن

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

الداعي تارة يدعو وهو في حال الشعور بالخوف من النار ، وأخرى في حال الطمع بالجنة فالتقابل إنما حصل بين متعلق الخوف والطمع . وهو الجنة والنار وليس بين مفهوميهما ويكشف عن ذلك السياق الخارجي وهو حال الداعي بالرغبة بالجنة من جهة والخوف من النار من جهة أخرى وهذه من سياقات الإتصال مع المخاطب القادر عليهما والمجازي بهما.

الرغبة والرهبة

يجتمع الفعل الخارجي مع الشعور الداخلي للداعي في التقابل الثاني ليشكل مقاماً فريداً للداعي . إذ جاءت الرغبة والرهبة في الخطاب في سياق دعوة الأنبياء والإستجابة لهم تضادّاً دلالياً يستوعب الاجواء النفسية للمرسل ويدفعه باتجاه إنشاء الخطاب مع الاحتفاظ بمقدمات الخطاب ، وتحضير الأفعال السابقة لفعل الخطاب وهو المسارعة في فعل الخير لخلق القبول والتضامن مع المخاطب الذي اشترط في الخطاب الإستمرار ببعض الأفعال لإدامة الصلة لذا جاءت بالفعل المضارع في قوله تعالى : ﴿ ..إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ الأنبياء/ ٩٠ . فالفعلان (يسارعون) و(يدعوننا) ؛ اي أجواء الشعور بالرغبة الى لقاء الله تعالى والرهبة والخشية منه فضلاً عن الخشوع الذي يحيط بهذا الدعاء ، وهذه الحالات ((الكاشفة عن تأثر القلب من مشاهدة العظمة والكبرياء))[٣٦] . تشكّل حركة مستمرّة لفعل الخير المصاحب للخطاب .

التضرع والخفية

وردت ثنائية التضرّع مقابل الخُفية في قوله تعالى: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ الأعراف / ٥٥ . وفي قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ الأنعام / ٦٣، وورد مقابل الخِيفة في قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ الأعراف/ ٢٠٥. وقد جاء الخفاء في هذه الآية في قوله تعالى (ودون الجهر). وورد (التضرّع) منفرداً عنهما في صيغ مختلفة وفي سياقات الشدة والبلاء :

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ الانعام / ٤٣

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ الاعراف / ٩٤

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ المؤمنون / ٧٦

وبالنظر في ثنائية التضرع والخُفية الواردة في سياق توجيه النص القرآني للمرسِل ليكون على هاتين الحالتين عند الخطاب (الدعاء) . نجد أن التضرّع يُشعِر بالانضمام الى المخاطَب وإرادة الصيرورة تحت قدرته ؛ لان فيه دلالة إظهار الضعف والتذلل وهو من ((ضَرَعَ إِليه يَضْرَعُ ضَرَعاً وضَراعةً : خضع وذلَّ ،وتضرَّع : تذلَّل وتخشَّع)) [٣٧] . وهو وإظهار العجز أمام القدرة الالهية . و الخُفية ضد الاعلان . ((لأنّ في الجهر عدم مبالاة بالمخاطب وظهور استعلاء وعدم تذلّل))[٣٨] ومنه ما نادى به نبي الله زكريا (ع) ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ مريم / ٢-٣ وبذلك فإن: (تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) يعربان حالان على الأرجح وليسا مفعولين من أجلهما . لأنهما يبينان حالة المرسِل عند إرساله الخطاب. و بالعطف بين اللفظين يتشكّل سياق حال المرسِل . إذ يشكّل اجتماعهما سياحة في عالم التواصل الروحي مع المخاطَب المطلق الرحمة وواسعها . إذ إن أحوال المخاطب كلما كانت مركبة من مقامات عدة، ومشاعر مركبة كلما كانت فرصة وصول الخطاب أفضل.

وينفرد حال (التضرع) في سياقات الشدة (البأساء ، الضراء ، والعذاب) لعدم قدرة المرسل على الإخفاء و يعطي دلالة التذلل المصحوب بالشعور بالضعف ، والعجز من نفسه لله تعالى ،إذ إن هذه المفردة تشع بدلالات القرب والوصول في حالات الشدة والباس والبلاء لأنها تضم معاني الشعور بالذلة والصغار والافتقار أمام عظمة الباري تعالى واظهار الضعف وعدم القدرة على التصرف في حال الوقوع بمصيب. وهذه أحوال ومقامات تحصل عند المرسِل ، تستنهض عملية التواصل من أعماقه وتحرك عجلة الإرتباط وإن كان الاتصال مقطوعاً من قبل، وهذه الحالة مرغوبة ومحبوبة عند المخاطب (الله) في حال التوجه والتواصل عند الدعاء الاعتيادي، وكأن أحوال الشدّة كاشفة عن آلية التواصل المطلوب مع الباري تعالى . فإذا استشعر الإنسان هذه الحال فإنه يحصل على الإجابة من الله وتحريك دائرة التخاطب واستمرارها.

الخاتمة

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

في خاتمة البحث توصّل الباحث الى النتائج الاتية :

١- امكانية البحث في الخطاب القرآني على وفق المناهج الحديثة . مع الاحتفاظ بقداسة النص ، وليس ثمة حرج في ذلك.

٢- إن الخطاب الصاعد هو مصطلح أخذتُه من النص القرآني: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ فاطر / ١٠ ووجدت فيه الكفاية التعبيرية لما اريد من هذا الخطاب .وهو متفرع من الخطاب التراتبي .

٣- يعتمد هذا الخطاب على أكثر من استراتيجية منها: التضامنية ، والتلميحية ، والتأدب ، بحسب السياقات وفئة الشخصية المرسِلة للخطاب وعلاقتها بالمخاطب .

٤- يمكن أن نعدّ التأدب وما يتفرع عنه من قواعد هو نوع من أنواع الاستراتيجيات التي يمكن أن تستقل للوصول بالمرسل الى الغرض وتحقيق المطلوب .

٥- يمكن أن نضع تقسيماً فرعياً على اقسام العلاقات بين أطراف الخطاب .إذ يمكن تقسم العلاقات العمودية على : العمودية الذاتية ، والعارضة . فعلاقة الانسان بربه علاقة تراتبية عمودية ذاتية .و علاقة الرئيس بالمرؤوس علاقة عمودية عارضة.

٦- كلما كانت علاقة المرسل (الانسان) بالمخاطب(الله تعالى) علاقة قوية تبين التضامن اكثر في الفاظه واساليبه اللغوية.

٧- في النص القرآني الخاص بهذا الخطاب وجدنا ما يسمى بدائرة التخاطب التي تتحرك بأدوات لغوية معجمية وأخرى نحوية ليستمر التواصل بين طرفي الخطاب.

٨- إذا ازداد التضامن بين المرسل والمخاطب يمكن ان ينتقل الى استرتيجية التلميح .وتتبين فيه قواعد التأدب اكثر .

٩- مثلما تشكّل أساليب الطلب من الأمر والنهي والنداء وسائل لغوية للاستراتيجية التوجيهية فهي يمكن ان تكون وسائل لغوية لاستراتيجية التضامن .

١٠- تُعدُّ الجملة الخبرية من أساليب اللغة التي تبين مستوى التأدب من جهة وتدخل في استراتيجية التلميح

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

من جهة اخرى .

١١- ضمائر المتكلم للمفرد والجمع تؤدي دوراً واضحاً في استراتيجية خطاب الانبياء . إذ تتكرر في الخطاب الواحد لتكثيف التضامن بين المرسل والمخاطب .

١٢- تشكّل بعض الثنائيات النفسية التي رسمتها بعض النصوص القرآنية محفزاً للتواصل مع المخاطب.

الهوامش

[١] استراتيجية الخطاب مقاربة لغوية تداولية . د عبد الهادي بن ظافر الشهري ، ط٢ / ٢٠١٥ دار كنوز المعرفة / عمان الاردن : ١/ ٩٥
[٢] ينظر تنقيح الفهوم العالية ، حسن بن علي السقاف ، ط١ / ١٩٩٣ دار الامام النووي / الاردن عمان : ٥٤
[٣] استراتيجية الخطاب مقاربة لغوية تداولية : ١/ ٩٥
[٤] الخطاب والتغيير الاجتماعي ، نورمان فيركلف، ترجمة محمد عناني ط١/ ٢٠١٥ / القاهرة / مصر :٢٠١
[٥] استراتيجية الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ٢/ ٨
[٦] ينظراستراتيجية الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ١/ ١٣٢
[٧] ينظر استراتيجية التواصل، سعيد بنكراد ، مجلة علامات العدد ٢١ لسنة ٢٠٠٤ : ١١
[٨] استراتيجية التواصل: ١١.
[٩] ينظر الجامع لأحكام القران والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان ، ابو عبد الله محمد بن احمد بن ابي بكرالقرطبي(٦٧١) تح عبدالله بن عبد المحسن التركي . ط١ / مط الرسالة ، ٢٠٠٦ بيروت لبنان : ٩/ ٤٣٤
[١٠] معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس (٣٩٥) تح عبد السلام محمد هارون ، ط٢ / بيروت دار الجيل ، ١٩٩٩ : ٢/ ٢٧٩
[١١] استراتيجية التواصل ، سعيد بنكراد : ١٠
[١٢] ينظر الميزان في تفسير القران ، محمد حسين الطباطبائي ط١/ دار المجتبى / ٢٠٠٩ / ايران : ٦/ ٢٦٩
[١٣] ينظر استراتيجيات الخطاب :٢/ ١٣٦
[١٤] ينظر اللسان والميزان او التكوثر العقلي ، طه عبد الرحمن ط١/ ١٩٩٨ : ٢٢٣
[١٥] ينظر اللسان والميزان: ٢٤١
[١٦] الميزان في تفسير القرآن : ٦/ ٢٥٧
[١٧] ينظر استراتيجيات الخطاب : ٢/ ٧٩
[١٨] ينظر البحر المحيط، ابي حيان الاندلسي (٧٤٥) لشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق ١) د.زكريا عبد المجيد النوقي ٢) د.أحمد النجولي الجمل . الطبعة : الأولى. دار الكتب العلمية ، ٢٠٠١ / بيروت
[١٩] ينظر الجامع لأحكام القران القرطبي(٦٧١) مط دار احياء التراث العربي ، ١٩٨٥ / بيروت : ١٣ / ٣٧٠
[٢٠] ينظر دقائق التفسير . ابن تيمية (٧٢٨) تح د محمد السيد الجلنيد ، مط مؤسسة علوم القران ، ١٤٠٤ / دمشق : ٢/ ٣٦٢
[٢١] ينظر الميزان في تفسير القران : ٦/ ٢٧٢
[٢٢] ينظر الامثل في تفسير كتاب الله المنزل ، ناصر مكارم الشيرازي ، ط١ / مط امير الؤمنين / قم : ١٢ / ٢١٤
[٢٣] الحوار وخصائص التفاعل التواصلي : دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية ، د محمد نظيف دار افريقيا الشرق / المغرب / ٢٠١٠ : ٢٢
[٢٤] التداولية ، جورج يول ، ترجمة قصي العتابي ، دار الامان ، ط١ / ٢٠١٠ بيروت : ٣٩
[٢٥] ينظر استراتيجيات الخطاب : ٢ / ٤١
[٢٦] ينظر قضايا الشعرية ، رومان ياكوبسن ، ترجمة محمد الولي ومبارك ، ط١/ ١٩٨٨ : ٢٩
[٢٧] ينظر الميزان في تفسير القران : ٣/ ٣١
[٢٨] شرح الرضي على الكافية : ١/ ٤٠٦
[٢٩] ينظر شرح الرضي لكافية ابن الحاجب ، تح يحيى بشير مصري ، مط محمد بن سعود ط١/ ١٩٩٦ / السعودية : ١/ ٥٠٥
[٣٠] لسان العرب ،دار صادر / بيروت : مادة غدا
[٣١] لسان العرب : مادة عشا
[٣٢] لسان العرب : مادة اصل

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠

[٣٣] ينظر مفردات الفاظ القران . الراغب الاصفهاني (٤٢٥) تح صفوان عدنان داوودي ، دار القلم / دمشق ط ٤ / ١٤٢٥ : ٦٠٣
[٣٤] ينظر اللسان والميزان : ٢٤٦
[٣٥] ينظر مفردات الفاظ القران الكريم ، الراغب : ٣٠٣
[٣٦] الميزان في تفسير القران : ١٤/ ٣١٦
[٣٧] لسان العرب : مادة ضرع
[٣٨] تفسير البحر المحيط : ٤/ ٤٤٩

المصادر والمراجع

القرآن الكريم
-استراتيجية التواصل، سعيد بنكراد ، مجلة علامات /العدد ٢١ لسنة ٢٠٠٤ م
-استراتيجية الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، د عبد الهادي بن ظافر الشهري ، ط٢ ، دار كنوز المعرفة ، عمان / الاردن / ٢٠١٥
-الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، ناصر مكارم الشيرازي ، ط١ / نشر مدرسة الإمام علي بن ابي طالب / قم – ١٤٢٦ هـ
-البحر المحيط، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الشهير أبي حيان الاندلسي (٧٤٥ هـ) تح الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق ، د. زكريا عبد المجيد النوقي ، د. أحمد النجولي الجمل . ط١ / دار الكتب العلمية / بيروت - ٢٠٠١م
-التداولية ، جورج يول ، ترجمة قصي العتابي ، ط١ ، دار الامان / بيروت/ ٢٠١٠ م
-تنقيح الفهوم العالية ، حسن بن علي السقاف ، ط١ / دار الامام النووي / الاردن عمان / ١٩٩٣ م
-الجامع لأحكام القران والمبيّن لما تضمنه من السنة وآي الفرقان ، ابو عبد الله محمد بن احمد بن ابي بكر القرطبي (٦٧١ هـ) تح عبدالله بن عبد المحسن التركي . ط١ ، مط الرسالة ، بيروت / لبنان - ٢٠٠٦م
-الحوار وخصائص التفاعل التواصلي : دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية ، د محمد نظيف دار افريقيا الشرق / المغرب / ٢٠١٠ م
-الخطاب والتغيير الاجتماعي ، نورمان فيركلف، ترجمة محمد عناني، نشر المركز القومي للترجمة، ط١/ القاهرة / مصر / ٢٠١٥ م
-دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية ،تقي الدين ابو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد الله بن ابي القاسم بن محمد بن تيمية الحنبلي الدمشقي (٧٢٨ هـ) تح د محمد السيد الجلنيد ، مط مؤسسة علوم القران / دمشق ، ١٤٠٤ هـ
-شرح الرضي لكافية ابن الحاجب ، محمد بن الحسن الاستراباذي الرضي ، تح حسن بن محمد بن ابراهيم ، ويحيى بشير مصطفى ، ط١ ، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / السعودية - ١٩٩٦ م
-قضايا الشعرية ، رومان ياكوبسن ، ترجمة محمد الولي ومبارك حنوز ، دار توبقال للنشر / المغرب ، ط١/ ١٩٨٨ م
-لسان العرب ، محمد بن مكرم بن علي جمال الدين بن منظور الأنصاري الأفريقي (٧١١ هـ) دار صادر / بيروت ، ط٣/ ١٤١٤ هـ
-اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، طه عبد الرحمن ، نشر المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط١/ ١٩٩٨ م
-معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس (٣٩٥ هـ) تح عبد السلام محمد هارون ، ط٢ ، دار الجيل / بيروت- ١٩٩٩ م
-مفردات الفاظ القران . الراغب الاصفهاني (٤٢٥ هـ) تح صفوان عدنان داوودي ، دار القلم / دمشق ط ٤ / ١٤٢٥ هـ
الميزان في تفسير القران ، محمد حسين الطباطبائي ط١/ دار المجتبى ، ايران / ٢٠٠٩ م

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٥ – كانون الثاني لسنة ٢٠٢٠